دراسات

في آثار الاقدمين الروحية

ناشر سيفين

(تمهيد) — قيل عن قدمائنا انهم كانوا يعبدون الحيوان لما أثر عنهم من تقديس بعض أجناسها. وعرف الى جانب هذا انهم اهتدوا قبل سائر الامم الى عقيدة البعث والحياة الاخرى

والمرء اذ يرى هذا التناقض في اتجاه الفكر ليتولاه العجب من أمرهم وتمتلكه الحيرة دون ان يفهم كيف صح عندهم ان يسموا من ناحية في عالم الروح الى غير المنظور وان ينحدروا من الناحية الاخرى في عالم المادة الى عبادة الحيوان

وفي هذه المقالات سأعرض لدرس آثارهم الروحية سواء منها ما انتقل الى الديانات الاخرى وما بقي منها في عاداتنا وتقاليدنا القومية وأرجو أن أوفق الى تفهم روحهم والقاء بصيص من النور على بعض الأركان المظلمة من معتقداتهم تبدد ما غشيها من شبهات الصقت بهم

وبالنظر الى تردد ذكر توت بمناسبة الكشف في منطقة تونه الجبل عن معابد ومومسات لطائر أيبس والقرد وهما الحيوانان المقدسان له فقد رأيت ان أبدأ هذه الدراسات به

المعبود توت

توت أو تحوت رب الحكمة والسحر عند الاقدمين واله العلم ومخترع الكتابة ومستنبط علم الحساب وواضع الاسس لسائر العلوم والمعارف

وكانوا يزعمون ان له كتاباً من صفحتين كتبهما بيده وضمنهما العلوم السحرية ... من يقرأ الصفحة الاولى يصبح له سلطان على السماء والارض ويفهم لغة الطيور ويتطلع الى ... أعماق البحار ومن يقرأ الصفحة الثانية يمكنه ان مات وانتقل الى عالم الارواح ... الارض ويأخذ فيها الهيئة التي كان عليها أولاً. وان يرى الشمس في كبد السماء ومن حولها البدر والنجوم وباقي الآلهة

وقد لبث هذا الكتاب يشغل حيزاً من تفكير المشتغلين بالمسائل الروحية الى أوائل العصر

المسيحي . وقد وجد البردي الذي فيه خبر هذا الكتاب في قبر راهب قبطي بطيبة

ولا يزال لتوت الى ايامنا هذه ذكر عند المشعوذين فان أحدهم اذ يبتدىء امرض الاعيبه على الجمهور يرفع صوته بقوله « توت حاوي » كأنه يستنجد رب السحر

وكان أهم مركز لعبادته مدينة الاشمونين وهذا الاسم تحريف خمينو وهو اسمها باللغة القديمة وأطلق عليها في العصر اليوناني اسم هرموبوليس أي مدينة هرمس وهو إله الحكمة عند اليونان

وقد تردد ذكر هذه المدينة في الايام الاخيرة متصلاً بالابحاث التي تجريها بعثة الجامعة المصرية برئاسة الدكتور سامي جبره في هذه المنطقة للكشف عن آثارها . وقد وفقت في هذا العام توفيقاً عظيماً اذ كشفت عن اشياء كثيرة تتصل بعبادة توت من معابد ومومياءات للطائر أيبس والقرد وهما الحيوانان اللذان كان الاقدمون يقدسونهما لتوت ويتقربون اليه بإهداء مومياء احدهما الى المعبد . وقد عثر من بين مئات منها على مومياء قرد زينت رقبته وصدره بحلي من الذهب ووجدت على ظهره وقدميه عائم من الخزف

وهنا يسأل المرء ما علاقة الطائر أيبس او القرد برب الحكمة . واية فضيلة اختص بها هذان الحيوانان واستحقا من أجلها التكريم والتقديس باسم توت . وهذا يتطرق بنا الى موضوع عبادة الحيوان ومن ثم الى دراسة الانسان من الناحية النفسية في حالة الفطرة . ولنقصر بحثنا على مصر منعاً لتشعب الكلام واستفاضته في نواح لا تتسع لها هذه الصحائف

من الامور التي ازعجت الانسان في بداوته توفر الامطار حيناً وقلتها حيناً آخر واشتداد الحر فترة تعقبها فترة من البرد القارس . واستمرار الجفاف والقيظ زمناً يعقبه ارتفاع ماء النهر حتى يغمر الارض جارفاً امامه كل شيء من اكواخ واقوات أدخرت بشق النفس . وقد ظل الانسان أجيالاً في جهالته قبل ان يدرك ان للشتاء نذراً فيستعد له وللجفاف امارات فيأخذ أهبته وللفيضان علامات تنبىء به قبل اغارته فيهرب بأقواته الى حيث لا يدركه الغرق وكان هذا الكشف اول انتصار للانسان على الطبيعة

وكان مفتاح هذا الاكتشاف الظاهرة التي أشار اليها المسيح في سياق احد الامثال التي كان يخاطب بها الشعب وتلاميذه ويضمنها تعاليمه لتكون ادنى الى افهامهم اذ قال (انظروا الى شجرة التين وكل الشجر متى افرخت تنظرون وتعلمون في انفسكم ان الصيف قد قرب) فقد عرف الانسان ذلك كما عرف ان الشتاء يسبقه اصفرار الاشجار وتساقط أوراقها ولاحظ ايضاً ما يصاحب هذه التقلبات من ظهور بعض انواع الطير او الحيوان ومهاجرة غيرها او اختفائها في جحورها

وفي نصف الفيضان تفد الى مصر طوائف من ايبس وهو طائر مائي من فصيلة ابي قردان واذ لاحظ الاقدمون مع الزمن هذا التلازم اتخذوه علامة على قرب هذا الحادث السنوي العظيم وتوهموا انه اذا لم تجيء طوائف منه لا يكون فيضان . فصاروا يحتفظون في اكواخهم

بأفراد [illegible] وتطوفوا [illegible] تيمناً به واستجلاباً للخير الذي يصاحبه

[illegible] الناس من ذلك الى النظر في السماء فعرفوا ان تقلب الجو انما يرجع الى اختلاف [illegible] الشمس عن الافق واصبح في امكانهم أن يعرفوا الفصول بالنظر الى ذلك واهتدوا بمراقبة [illegible] وجود القمر الى تقسيم الزمن الى اسابيع وشهور. ووفقوا علاوة على ذلك الى كشف نجم له [illegible] في مصر. فقد لاحظوا انه لا يظهر في نقطة بينها في الافق مع الشمس الا مرة قبيل [illegible] الفيضان [illegible] مبشراً به وآية من السماء على اقترابه ونجمه سوذس وهو كوكب الشعرى. وقد مكن هذا [illegible] المصريان [illegible] العالم اول تقويم شمسي معروف. وسيجيء الكلام عنه في موضعه بعد

[illegible] الانسان في الملاحظة واستقراء الاسباب حتى انتهى الى القول في تعليل مشاهداته بأن هنالك روحاً عنده علم كل شيء ويحيط بأسرار الكون. وهو انما يتخذ الطير والشجر [illegible] كل ما يقع تحت [illegible] يصار الناس وسيلة لكشفها لهم ليتقدموا بها في شؤونهم من الرحمة [illegible] في سذاجة الفطرة يصورون لانفسهم ذلك الروح ويلتمسون له في [illegible] شيئاً لانهم [illegible] قد مارسوا بعد صناعة التماثيل ولا اية صناعة أخرى فشبهوه بالقرد لذكائه وقدرته على توجيه انظار الناس اليه [illegible] حركاتهم على نحو ما يصف احدنا الولد الذكي اليقظ بالقرد

واتخذوه [illegible] لذلك الروح الذي عنده علم كل شيء ولا يضن بعلمه عن الناس ووسيلة [illegible] والشكاية اليه

ولما عرف الانسان الزراعة وتركز اعتماده عليها وارتبط بقاؤه باقبالها وكان ذلك رهيناً [illegible] كثيرة لا سيطرة له عليها ولا علم له باكثرها اشتد شعوره عندئذ بضعفه وانه لا يملك من امره شيئاً [illegible] يعتقد بعجزه امام قوى قاصرة غير منظورة لا يستطيع بوسائله المادية دفع [illegible] او استجلاب خيرها. فكان اذا حزبه امر او ضاقت به الحيل في شأن من شؤونه او [illegible] كان يجلس [illegible] الى ايبس او القرد مسلماً الى الهواجس [illegible] الروح [illegible] في الماضي في ظلمات الجهل وعلمه كثيراً مما لم يكن يعلم ان يأخذ [illegible] الى معرفته ورفده التي اعتماده عليه. والتمس توجيه الخطاب [illegible] الاسم [illegible]

و[illegible] الروح [illegible] وتطور الروح الذي فرض الانسان في جهالته وجوده فرضاً [illegible] وتميز ظاهرات [illegible] عنه فصار الهاً. واصبحت الكلمات التي كان [illegible] وهو في حيرة من امره او يخاطب بها الايبس او القرد وهو مكتئب [illegible] اصبحت عنده الكلمات صلاة

[illegible] على الايبس والقرد حرمة وتقديساً وصار شأنهما عند الناس كتماثيل [illegible] الا انها تماثيل من صنع انسان

توت أول شهور السنة المصرية

اتخذ المصريون منذ القدم النيضان مبدأ لتقويمهم وقد حسبوا الفترة [illegible] الفيضان [illegible] الفيضان الذي يليه فوجدوها تستغرق اثني عشر شهراً . ولما [illegible] سوذيس [illegible] شروقه مع الشمس يتوافق مع ارتفاع ماء النيل جعلوه مبدأ لدورة السنة الشمسية [illegible] تحققوا أن هذه الدورة تزيد عن اثني عشر قمراً بضعة أيام وعالجوا ذلك بجعل الشهر ثلاثين يوماً [illegible] أضافوا خمسة أيام تجيء عقب تمام الاثني عشر شهراً وهي المعروفة بأيام النسيء وبذلك [illegible] ثلثمائة خمسة وستين يوماً . وللاقدمين أسطورة طريفة في سبب اضافة هذه الأيام [illegible] أن رع منذ الأزل دعا على نوت ربة السماء بألا يولد لها ولد في أي يوم من [illegible] نوت ومضت الى توت رب السحر والعلم والحكمة وقد كان يحبها ويبثه حبها

ونهض توت للاخذ بنصرتها بالرغم من أنه يعز استحالة رد قضاء [illegible] وتفنن حتى لطفت به شفتاه ، وأمكنه بحكمته تلطيف القضاء . ذلك بأنه تحدى اله القمر ليساجله في لعبة تشبه الشطرنج . وقبل اله القمر تحديه مراهناً على نوره . وحالف الحظ توت دوراً بعد دور [illegible] اله القمر عن اللعب مقراً بالهزيمة . عندئذ أخذ توت ما يعادل من نور القمر وبقدرته [illegible] خمسة أيام . ومنذ ذلك الحين لم يعد نور القمر يكفي لظهوره في الافق الشهر بأسره . لكن [illegible] نوره يوماً فيوماً ثم ينمحق ولما يتم ثلاثين يوماً

وجعل توت هذه الايام بين السنة المنتهية والتي تليها من غير أن يلحقها بأحداها . وفي تلك الايام الخمسة وضعت نوت أبناءها أوزيريس وحورس وست وإيزيس ونفتيس على التوالي

وتقديراً لفضل توت في معرفة تقسيم الزمن وانشاء التقويم سمي أول الشهور باسمه

واستمر العمل بهذا التقويم أجيالاً [illegible] مع توالي السنين [illegible] في الفصول المقررة لها . فكان فرضاً على الكهنة [illegible] الحفاظ على الاعياد [illegible] وقد عثر على شذرة من رسالة موجهة من أحد رؤساء الكهنة الى مرؤوسيه [illegible] السنة سيوافق اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن ويطلب اليهم اعتبار [illegible] اليوم أول توت والرسالة مؤرخة في السنة [illegible] والعشرين [illegible] الأسرة الثانية عشر [illegible] التاريخ يوافق سنة ١٨٨٠ قبل الميلاد [illegible] رأس السنة [illegible] مصر القديمة [illegible] لاحدى [illegible]

وحكاية ذلك كما روته الاسطورة أن الناس تمردوا على رع رب [illegible] وخرجوا عن طاعته وعصوا أوامره وأخذوا بنواهيه [illegible] رأيه على تأديب العصاة وردهم الى صراط مستقيم . فأعطى هاتور سيف انتقامه وأرسلها [illegible] المتمردين [illegible]

وأهلكت منهم خلقاً كثيراً فسالت الدماء الى النهر فتحوّل أحمر قانياً . ولما رأى رع من علبائه ذلك أخذته الشفقة على جنس الانسان ومال الى الصفح عنهُ وغفران ذنبه . ولكن كيف السبيل الى ذلك ورع لن ينقض حكماً بعد ابرامه وهاتور لن تفني عن عمل وجهت اليه ومهمة نيطت بها حتى تتمها . وقد ذلل رع ذلك بوسيلة هي بالحيلة أشبه

أمر رع النساء ليصنعن من الشعير شراباً وأرسل في الوقت نفسه رسلاً الى اسوان ليجلبوا من هناك عنباً من كل ذي لون أرجواني وقرمزي ليتخذ منهُ عصير أحمر هو النبيذ . ثم اشار بمزج الشراب المصنوع من الشعير بالنبيذ فكان مزاجهما شراباً مسكراً أحمر بلون الدم. وعندئذٍ أمر فأريق الشراب في الاماكن التي اجتازتها هاتور للانتقام . ولما جاءت هاتور في الصباح لاستئناف المذبحة تلفتت يمنة ويسرة فلم تجد أحداً من الناس الا هذا السائل الاحمر فتملكها الغضب وثارت تعطشاً الى القتل وانحنت على الارض وولغت في ذلك السائل وهي تحسب انهُ دم الخلق الذي سفكت فثقل رأسها من السكر ونامت فنجا الناس بذلك من فتكها . وتذكاراً لما كان لهذا الشراب من فضل في خلاص الناس شرع لهم رع ان يشربوه كلما جاء عيد رأس السنة للذكرى

أما السبب في ان أول توت لم يكن يتوافق مع ظهور سوذس طبقاً للقاعدة التي وضعت لهُ منذ انشاء التقويم بل كان يسبق ظهوره سنة بعد أخرى حتى بلغ الفرق بتعاقب الاجيال المبلغ الذي أشارت اليه الرسالة وهو سبعة شهور ونصف فهو ان السنة بحسابها ثلثمائة خمسة وستين يوماً تنقص ربع يوم من المدة التي تستغرقها الارض في دورانها حول الشمس من نقطة اقترانها بسوذس . وبناء على هذا فالسبعة الشهور والنصف هي مقدار ما تجمّع من أرباع اليوم في سنين عددها يساوي عدد أيامها وهو مائتان خمسة وعشرون مضروباً في اربع أي تسعمائة سنة ولو كان ذلك بدون تعديل لتوافق اول توت مع ظهور سوذس بعد تمام الف واربعمائة وستين سنة وهو الحاصل من ضرب عدد أيام السنة في اربعة

فلو فرضنا ان حادثة ضبط التقويم التي نحن بصددها هي الاولى من نوعها وقد حصلت على ما حققه العلماء المختصون في عام ١٨٨٠ ق.م. فيكون عام ٢٧٨٠ ق.م. من الاعوام التي توافق فيها اول توت مع ظهور سوذس ومن حيث ان الاسرة الاولى تولت الحكم حوالي عام ٤٤٠٠ قبل الميلاد فيمكننا القول بأن التقويم انشئ قبل عام ٢٧٨٠ بدورتين على الاقل اي ٢٩٢٠ سنة وعلى هذا فيكون التقويم انشئ سنة ٥٧٠٠ قبل الميلاد على أقل تقدير

جرى العمل بهذا التقويم على ما به من نقص أجيالاً ولم يفطن أحد الى الطريقة المثلى لاصلاحه حتى ولي الملك بطليموس الثالث الملقب بأيفرجتس الاول وكان محبّاً للرعية مخلصاً للدين فقرر الكهنة اقراراً بفضله واعترافاً بما له ان ينشئوا باسمه عيداً يقام كل سنة أربعة أيام متتابعة

ولكي يقع العيد على مر السنين في الموعد المقرر له رأوا اصلاح التقويم بإضافة يوم الى كل سنة رابعة . وكان ذلك قبل الميلاد بمائتين ثماني وثلاثين سنة

ولما دخلت مصر في حكم الرومان بعد البطالسة امر اغسطس قيصر في السنة السادسة والعشرين قبل الميلاد بتعديل التقويم المصري بحيث توافق شهوره دائماً مع التقويم اليولياني وبمقتضى هذا التعديل اصبح اول توت يوافق اليوم التاسع والعشرين من شهر اغسطس

وقد اسخط تعديل التقويم على هذه الصورة المصريين وكان من مظاهر احتجاجهم عليه احتفالهم بمهرجان اول توت في موعده القديم وهو يوافق على ما تقدم العشرين ١٩ يوليو وهو وقت اقتران سوذس بالشمس في خط عرض هليوبوليس . ولبثوا على ذلك الى ان دخلت المسيحية مصر فكان في انتشارها القضاء على الدين القديم والعفاء على ما كان يتصل بها من اخبار الآلهة ومآثرهم . وبطلت من ثم الاعياد التي انشئت للتنويه بهم والاشادة بذكرهم

ولما لم يكن قد رتب للمسيحية بعد أعياد لتأخذ مكان الاعياد القديمة فقد حن الشعب الى احياء هذا العيد والاستمتاع بمباهجه ولاسيما انه في ظاهره لا يتعارض مع المسيحية اذ كان لذكرى الخلاص وهي العقيدة التي أسس عليها هذا الدين . وفيه تشرب الخمر لذكرى الخلاص وهي بعينها الخمر التي قال عنها المسيح انها دمه الذي يسفك من اجل خلاص العالم وأوصى بشربها للتذكار فصار المصريون يحيونه كل سنة ولا يرون في ذلك حرجاً او اثماً . ولما أنشأت الكنيسة عيداً للقيامة جعل هذا المهرجان في أثره ولايزال الى الآن وهو عيد شم النسيم

وفي رأيي ان السبب في هذه التسمية ان العيد في الاصل كان يقع في بداية فصل الفيضان فكان يطلق عليه اسم هذا الفصل باللغة القديمة وهو "شمو" فلما تغير الدين وتبع ذلك تغير اللغة أصبح هذا الاسم لفظاً بلا معنى . ولمقاربته في النطق لفظاً عربياً ضم اليه [illegible] لفظ النسيم لا يطابقه ويتم معناه . وبهذا اصبح الاسم المصري القديم عربياً لفظاً ومعنى

وكثير من العادات المتصلة بهذا العيد ترجع في مغزاها الى [illegible] عليها الشعب منذ القدم للتنويه بحتى يستفاد منه . فمن النوع الاول عادة شرب [illegible] من الشعير [illegible] وانسوبها في شم النسيم [illegible] خمر الشعير والنبيذ التي شرعها رع لذكرى الخلاص

ومن النوع الثاني عادة شم البصل في صباح يوم شم النسيم [illegible] مأخوذة من عادة [illegible] الاطفال عقب وضعهم البصل لشمهم ليصحوا ويتخلصوا [illegible] ولا تزال هذه العادة عند القرويين الى هذه الايام . وقد أريد بها في مناسبة عيد الاعتدال [illegible] واستحياءهم وكتب لهم عمراً جديداً أوله ذلك اليوم

﴿ أصل بعض العادات المتصلة بشهر توت ﴾ ومن العادات المستغربة ان كثيراً من نساء القبط يخرجن اذا كان اول توت الى سطوح المنازل في الصباح ليرين على زعمهن رأس يوحنا المعمدان في السماء

وفي اعتقادي ان هذه العادة ابتدأت لما كان سيروس من كواكب الرب عند الاقدمين اذ كان مطلعهُ في الصباح مع الشمس يحمل البشائر بأول توت والبشائر بابتداء فصل الفيضان . فكان الناس يترقبون شروقهُ في الاماكن المرتفعة وألسنتهم تلهج بالدعاء ان يكون مطلعه مطلع خير وبشيراً بعام جديد تتحقق فيه الآمال . فلما دخلت مصر في المسيحية نسي الناس سيروس لكنهم لم ينسوا العادة التي غرسها في الاجداد استبشارهم به واحتفالهم برؤيته . وكان لا بد ابقائها من صبغها بصبغة الدين الجديد فلما قررت الكنيسة عيداً لذكرى مقتل يوحنا المعمدان وجعلت موعده في اليوم الثاني من شهر توت أضاف الشعب المحافظ على عاداته الموروثة عادة التطلع الى الافق في اول توت الى ذكرى هذا الرسول الذي قتل ووضعت رأسه في طبق

وشهر توت عند اكثر الناس لاسيما من القبط غير موافق للزواج ومن اقوالهم في هذا المعنى «عروس توت للفوت» اي الترك . ولم استطع ان أقف على سر هذا التشاؤم حتى كنت في ذات يوم أقلب صفحات كتاب لبدج العالم بالآثار المشهور فاستوقفت نظري عبارة في سياق الكلام عن المعبودة ايزيس تفيد انهُ كان للاقدمين ايام سعود وأيام نحوس وتقويم يرجعون اليه اذا كانت لاحدهم حاجة يريد قضاءها لمعرفة اليوم الموافق لذلك . وقد جاء فيه عن اليوم السادس والعشرين من توت ما يأتي : (لا تعمل عملاً البتة في هذا اليوم ففيه احتدم القتال بين حورس وست) وحورس ابن اوزيريس الذي علم المصريين الزراعة وهداهم الى عبادة الآلهة . وست اخوه وكان شريراً فنفس على اخيه ما احرزه من نجاح وما صار له من المكانة والسلطان عند الناس فاحتال عليه حتى قتله . ولما بلغ حورس اشده أقسم لينتقمنَّ لابيه من ست . فناصبه العداء وكانت الحرب بينهما سجالاً ... تلك المعركة التي وصفوا التقويم وفي اثنائها تقدمت ايزيس ... ام حورس ... وتدخلت بينهما ... فحنق عليها ابنها ... وفي ثورة غضبه ضربها ضربة اطاحت رأسها فكان من تلك ... هذا اليوم . ولا يزال هذا التشاؤم طبقة يخيم على الشهر كله الى الآن

يقسم ... هذه الدراسة الى الطيور ... القديمة تنقسم من حيث الفكرة في تقديسها الى نوعين : الاول ... يرجع تقديسه الى التفاؤل ويشمل هذا النوع ما يعرف بالتوطم وهو عند الامم التي على الفطرة ذات مقدسة من الحيوان او النبات ومن هذا النيل عند قدمائنا الايبس . ولا يزال التفاؤل عند الناس شأن عظيم فكم من مريض يتفاءل بحجر او حية لا يدخل بطنها ... في ... الا ... عليها مرة انقبضت نفسه وتوقع السوء من التشاؤم

والنوع الثاني الحيوانات التي يرمز بها الى صفة من صفات المعبود او معنى يستفاد من اخباره . ويشمل هذا النوع سائر الرموز في الديانات القديمة وسأزيد هذا الموضوع بياناً في المقال التالي

زهرة

« إلى التي تعطر طريقي كل صباح »

ابسمي للصباح   رفيف عبق السماح
وازدهي بالفراح   نهر روح وراح
للهوى والمراح

***

عطري لي الطريق   بالشذى والرحيق
ان قلبي الطليق   سدين لا يفيق
تحت سحر الاقاح

***

أي روض نماك   أي [illegible] رواك
أي أرض حواك   نفحة من شذاك
أطلقت لي السراح

***

ان تموج الصدور [illegible] العطر
قد نشرت الصدور [illegible] في [illegible]

[illegible]
وازدهي بالفراح
نهر روح وراح
للهوى والمراح

حسن كامل الصيرفي